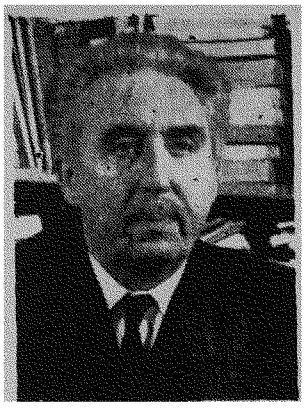

النكبة المتجدّدة

بقلم البروفسور جاك بيرك

كتب رئيس تحرير « الاداب » الى صديقه المستشرق الفرنسي الكبير البروفسور جاك بيرك ، الذي دأب على مناصرة قضايا العرب ، ووقف من قضيتهم الاولى وقفة مشرفة ، ولا سيما في اثناء العدوان ، كتب يعبر له عن تقدير المثقفين العرب لموقفه وفكره الحر المتجرد ، ويطلب منه الادلاء برأيه في نكبتنا الجديدة ، فبعث اليه المستشرق الكبير بهذه المقالة ، مع رسالة يختتمها بقوله : « ليس المطلوب ، حين نكتب في صالح قضية ، ان نقنع انفسنا ، بل المطلوب ان نقنع الخصوم . وهذا لا يتم من غير نقد ذاتي . وتلك هي وجهة نظر المقالة التي ابعث بها اليك » .

وهذه هي ترجمة المقالة :

ان هذه المحنة الجديدة التي تثقل على العالم العربي، وهي الثالثة في عشرين عاما ، تقتضي تعبئة للطاقات وللعقل . ولعل دروب الخلاص لم ترتبط ، كما ترتبط اليوم مثل هذا الارتباط الوثيق ، بالتحليل الذي يترتب على المفكرين العرب ان يكرسوا له كل جهودهم ، والى جانبهم جميع الذين يجهدون ، في العالم ، لاستخلاص حل يقوم على تقدير صحيح للمشكلة .

ان بالامكان مواجهة النزاع العربي الاسرائيلي على ثلاثة مستويات :

اولا ـ بصفته نزاعا تافها شبيها بنزاعات كثيرة تخرب العالم ، ويتدارسه اخصائيو العلوم السياسية وخبراء الحرب ، ان لم يكن تجار المدافع . ووجهة النظر هذه ، التي هي موضوع المساومات الاكثر اثارة للشبهات ، لا تفضي الى شيء . ومن المؤسف ان هذه هي الوجهة التي توقفت عندها ، حتى الان ، منظمة الامم المتحدة !

ثانيا ـ مستوى اخر ، اعمق جدا من المستوى الاول ، هو مستوى الصلات الخاصة بين ارض فلسطين واليهود من جهة ، والعرب من جهة اخرى . وهذه الصلات هي نفسها قابلة لان تفسر اما بالرجوع الى الاديان السماوية الثلاثة والى مشاعر التقديس المتصلة بها ، واما بالرجوع الى المواقف التاريخية . ومن المؤكد ان لليهود والعرب مع فلسطين صلات عميقة عكرتها الصهيونية منذ نصف قرن. ولن يعود السلام ، ولن تتحقق امكانات التعايش الا يوم ينتهي هذا التعكير . ان الصهيونية تبدو وكأنها النقل الشاذ للمعطيات الدينية الجوهر الى تطلعات ذات جذر مرتبط بالارض . وهذا صحيح جدا الى حد ان عودة اليهود الفردية والجماعية الى فلسطين لم يسبق لها قط، عبر القرون ، ان وضعت موضع التساؤل او الشك سيادة هذه الارض التي كانت مسلمة ، ولم تطرح مشكلات على اغلبية السكان الذين كانوا عربا . وقد عرفنا ما آل اليه ذلك منذ تصريح بلفور والانتداب البريطاني ..

ثالثا ـ ولكن المستوى الثالث ، الذي يتعلق به المستويان الاولان ، هو الوحيد الذي يتيح مواجهة حاسمة للمشكلة . فحتى لو افترضنا ان الذين يتقابلون في فلسطين هم الهولنديون مثلا والايرانيون ، بدلا من اليهود والعرب ، فان المشكلة ، في جوهرها ، لن تتغير من جراء ذلك . ان هذه القضية لا تختلف في ذاتها عن جميع القضايا التي كان قد طرحها في العالم ، في العهد الامبريالي ، استعمال علاقات القوة وضروب اللامساواة المالية والتكنولوجية بين الشعوب لتوسع بعضها على حساب الاخرى . فاذا اعتبرنا العلاقات الحالية بين اسرائيل والبلاد العربية حالة شبيهة بجميع تلك الحالات التي تواجه فيها الغرب وشعوب آسيا وافريقيا ، في الحقبة المعاصرة ، فان المشكلة تأخذ آنذاك بعدها الحقيقي.

والحال انه اذا ادرك كثير من شعوب العالم الثالث هذا البعد ادراكا صحيحا وعادلا ، سواء اتبعتها في ذلك حكوماتها ام لم تتبعها ، واذا كانت الاشتراكية من جراء ذلك تدعم القضية العربية ، لا كقضية عربية وانما لانها تتصل بالصراع العالمي بين المستغلين والمستذلين وبين الوفرة والغنى ، فان اشد التناقضات والتداخلات تظل قائمة ، وهي تستغل على الفور للابقاء على مواقف القوة . من ذلك مثلا ان اسرائيل تمثل نفسها عن رضى كشعب

صغير تحاصره قوى هائلة تحسده على عمله وعلى نجاحه. والحق ان المؤرخ العادل اذا لم يكن عليه ان يغبن الجهود التي يبذلها الاستعمار الصهيوني لاستثمار البلاد ، فان بوسعه أن يدلي بالادعاء نفسه عن استعمار فرنسا للجزائر . ان هذه الجهود ، في الحالتين كلتيهما ، ما كان لها ان تفضي الى شيء لولا ضغط الاجنبي ولولا مساعدة خارجية هائلة تجيء من جهة واحدة . ثم ان اسرائيل تتحدث كذلك عن الالام التي عاناها اليهود في اوروبا ايام هتلر . والحق ان هذه الالام كانت مريعة ، وهي تستحق التعويض من قبل المسؤولين عنها ، ولكن هؤلاء المسؤولين لم يكونوا في حال من الاحوال هم العرب . بل العكس الان هو الصحيح : فان العرب في فلسطين ، في عام ١٩٦٧ كما في عام ١٩٤٨ ، هم الذين احتلت بلادهم ، وانتزعت منهم اراضيهم واموالهم ، ونفوا . وقد اشرت من قبل الى الخلط المؤذي الذي يكمن في تحويل مشاعر دينية تستحق الاحترام او عواطف حنين تجاه ارض موعودة الى مطامع توسعية والى سياسة قوة ، باسم الصهيونية .

ان خلطا من هذا النوع هو الذي دفع قسما من المثقفين الفرنسيين ، على رأسهم سارتر ، الى الاعتقاد بان من واجبهم ، في بدء النزاع ، ان يقدموا دعما غير مشروط لاسرائيل ، هم الذين مثلوا دورا واعيا في حرب الجزائر . ولكن قسما اخر من مثقفينا كانوا من حسن الحظ اكثر تبصرا وادراكا . فقد ذهبوا ، وهم الذين يرفضون الامر الواقع لعام ١٩٤٨ ، الى انه لن يكون ثمة حل ، ولو باحتلال الارض ، الا لقاء تسوية جذرية ، وان هذه التسوية لا يمكن ان تتم الا شريطة الاعتراف المسبق ببعض المباديء . واحد هذه المباديء دفع التعويضات المتوجبة للمنفيين عام ١٩٤٨ ، وهو اليوم اكثر الحاحا واقلاقا بالنسبة لمنفيي ١٩٦٧ . وثمة مبدأ اخر هو مبدأ وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين . فان اي سلام لن يكون ممكنا ما ظلت اسرائيل تعرض نفسها كوطن يستقبل جميع عناصر اليهودية العالمية ، وما بقيت كذلك راس جسر للمصالح العالمية على الشاطيء الاسيوي . فليس بوسع اسرائيل اذن ان تتطلب ان يقبلها جيرانها على انها بلد شبيه بسائر البلاد ، ما دامت تقوم على هذا التناقض المزدوج .

ولكن اذا كان هذا هو تناقض اسرائيل الداخلي ، وايا ما كانت ضروب التواطؤ او اشكال العطف التي افادت منها طوال تاريخها القصير ، ولا سيما في النزاع الاخير ، فان على العرب ان يقتنعوا بان مصير الصراع وحل المشكلة يتوقفان على ما يفعلونه هم انفسهم . ولا يعنيني هنا ان اقترح عليهم اعمالا ينبغي على أي حال ان تكون مستوحاة من تحليل صحيح للاوضاع ، وانما يهمني ان الفت انتباههم الى ضرورة حل تناقضاتهم الخاصة . لقد كشفت الاحداث الاخيرة الوانا من الضعف كان المفروض بالمحن السابقة ان تحول دون عودتها . لقد تم الخلط ، مرة اخرى ، بين الواقع والحلم . ولقد فكروا بان عداله قضية ما تكفي لكي تفرض بذاتها نجاح هذه القضية ، في حين ان العدالة والظلم لا يمكن ، في عالم التاريخ ، ان يفرضا نفسهما بغير اللجوء الى سلاح الواقع . ولقد تكلموا بلغتهم الخاصة ، من غير اهتمام بأن يفهم هذه اللغة الاخرون . وهكذا تركوا الميدان خاليا لدعايات الخصم . لقد استهانوا بصعوبة المشكلة ، ومع ذلك فان هذه العالمية هي التي تشكل ، في رايي ، الميزة الرئيسية للقضية العربيه ، وهي التي ستجعلها تنتصر في اخر المطاف .

ان ثورة مشروعة ضد الوان الظلم التي مورست ، وان ارتدادا مشروعا على الذات قد قادا عددا كبيرا من العرب الى اهمال هذا الفهم للشعوب الاخرى التي كانت قد انتصرت لهم ، في عهودهم المجيده ، على قيصر وكسرى . والحال انه اذا كان صحيحا ان ليس ثمه « تعصير » ممكن الا ان يكون قائما على « اصالة » (١) ، فان هذه الاصالة التي تجعلك تجد حقيقة نفسك تجعلك تعترف كذلك بحقيقة العالم الذي يعيش حولك . ان المرء لا يستطيع اليوم ان يكون ذاته برغم الاخرين ، بل هو ذاته بالاخرين . والعكس كذلك صحيح .

ربما بدا خيالا واهما ربط منظورات للعمل ، تتطلبها نكبة من اشد النكبات الحاحا ، بمراجعات اساسية . ولكن اليس ذلك هو الشرط الاول لمواجهه ثورية ؟ والحق انه ان كان ثمة ما تعلمه كاتب هذه الاسطر من اصدقائه العرب ، فهو انه ليس ثمة من عمل صحيح لا يرتكز على « اصول » (٢) .

واذن ، فان العرب ، بفضل نقد لذواتهم لا هوادة فيه ، وبفضل امانة متزايدة لانفسهم وللقيم الكونية في وقت واحد ، سوف يستطيعون ان يجدوا العلاج لنكبتهم التي لا يستحقونها .

باريس — جاك بيرك

(١) و (٢) وردتا بالنص العربي في الاصل الفرنسي .

لجميع مطبوعاتكم :

دار الندى
للطباعة والنشر

بيروت ـ تلفون : ٢٣٠٥١٢